أ: عبد الحفيظ قبايلي جامعة باجي مختار عنابة

الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة وأثرها على الواقع السكاني في متيجةخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

ملخص الورقة :

شهدت الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدة كوارث طبيعية مثل الزلازل و الجفاف وزحف الجراد ، إضافة إلى المجاعات وانتشار الأمراض والأوبئة . ولم تكن متيجة بمعزل عن هذه الكوارث والآفات حيث شهدت سنوات عسيرة خصوصا في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر حيث عرفت خلالها زحف الجراد و انتشار الأمراض والأوبئة انتشار المجاعات . و باعتبار أنّ متيجة منطقة زراعية فإنها كانت تحوي مدناً هامة آهلة بالسكان مثل البليدة و موزاية ، و العفرون ... الخ ، ولذلك فإنّ وطأة هذه الكوارث كانت كبيرة على المنطقة وأدت إلى كارثة ديمغرافية كبيرة ، و سأحاول تسليط الضوء على الموضوع من خلال التطرق إلى طبيعة وأسباب هذه الكوارث و المجاعات و الأوبئة ، وسأبين أهم المناطق التي تأثرت بها في متيجة ، و سأبحث في نتائجها المختلفة على سكان المنطقة ، و الموقف الذي اتخذته الإدارة الفرنسية إزاءها.

تمهيد:

شهدت الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدة كوارث طبيعية مثل الزلازل و الجفاف وزحف الجراد ، إضافة إلى المجاعات وانتشار الأمراض والأوبئة . ولم تكن متيجة بمعزل عن هذه الكوارث والآفات حيث شهدت سنوات عسيرة خصوصا في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر حيث عرفت خلالها زحف الجراد و انتشار الأمراض والأوبئة و انتشار المجاعات . و باعتبار أنّ متيجة منطقة زراعية فإنها كانت تحوي مدناً هامة آهلة بالسكان مثل البليدة و موزاية

، و العفرون ... الخ ، ولذلك فإنّ وطأة هذه الكوارث كانت كبيرة على المنطقة وأدت إلى كارثة ديمغرافية كبيرة ، و هو ما سأعالجه فيما يأتي :

1- متيجة الأرض و السكان قبل وأثناء الاحتلال :

تعرّف متيجة بأنها تلك المساحة التي هي عبارة عن سهول في أغلبها ، والتي تحيط بالعاصمة وتمتد بين البحر الأبيض المتوسط وسلسة جبال الأطلس التلي ، وقد اشتهرت متيجة قبل الاحتلال الفرنسي بإنتاجها للبرتقال والعنب ، وتذكر المصادر أنّ إنتاج متيجة كان يكفي متطلبات العاصمة والسكان المحلين ، وأنّ جزءا منه كان يصدر للخارج . وفيما يتعلق بملكية سهل متيجة فإنّها كانت تحتوي على مزارع كبيرة تملكها الدولة و أخرى عبارة عن ملكية خاصة ، فقد كانت تملك الدولة حوالي 13 مزرعة يحتوي كل منها على 60و80 زوجا من الأبقار ، و بذلك تكون متيجة هي الممون الرئيسي للعاصمة فيما يتعلق بالحليب و الجبن والزبدة . إلى جانب ملكية الدولة و ملكية الخواص كان هناك عمال زراعيون يأخذون خمس المحصول (الخماسة) . ورغم ما قلناه عن سهل المتيجة و إنتاجه فإن بعض المصادر تذكر بأنه كان كثير المستنقعات و غير صالح للزراعة في أجزاء كبيرة منه [1].

يذكر حمدان خوجا أنّ سهل متيجة الذي استهوى الجنرال كلوزيل وبنى عليه طموحات كبيرة وتخيل أنه يمكن له أن يحوله إلى جنة فوق الأرض ، ما هو إلا تصور خاطئ لأن هذا السهل مثله مثل بقية السهول

[1] – أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال ويليه خلاصة تاريخ الجزائر المقاومة والتحرير 1830–1962 ، عالم المعرفة ، طبعة خاصة ، الجزائر ، 2011 ، ص.156.

الأخرى المتواجدة في الجزائر ، وأنّه مليئ بالمستنقعات التي يصعب تجفيفها ، كما تكثر به الحمى* التي تظهر من وقت لآخر وتصيب الإنسان [1].

وقد استولت السلطات الفرنسية على أغلب سهول متيجة ، وقامت بطرد سكانها منها فهذا مثلا حمدان بن عثمان خوجا الذي كان يملك اراضي واسعة فيه ورثها عن أبيه ، كما كانت لأسر أبي قتدورة ، وأبي هراوة ، و ناصف خوجا ، أراضي واسعة بسهل المتيجة . ولم تكن هذه العائلات هي الوحيدة التي اغتصبت أراضيها بل شمل الاغتصاب معظم الملاك في سهل متيجية ، حيث استولى الجنود الفرنسيون على خيرة الأراضي بمتيجة هذه الأراضي التي كانت ملكاً للجنود الأتراك والسكان الثائرين ضد سلطة الاحتلال الفرنسي ، ومن هنا بدأت فكرت الاستيطان تتكون بعد أن أقيمت أولى المراكز الاستيطانية في سهول المتيجة ، فقد كان أوائل المستوطنون يتكونون من الاحتكاريين الذين استولوا على أراضي سكان المتيجة عنوة أو اشتروها عنهم بأثمان زهيدة ، وقاموا بتشييد أولى المراكز الاستيطانية ، فكانت قرية القبة ودالي ابراهيم وبوفاريك أولى المراكز الاستيطانية التي انشئت في هذا الصدد [2].

* – نظرا لكثرة الأوبئة التي تصيب الإنسان والتي كانت منتشرة في متيجة فان الفرنسيين لم يستطيعوا مقاومة هذه الأمراض التي كانت تفتك بجنودهم خصوصا في متيجة حتى أنهم أصحوا يقولون " أنّ المقابر تعمرفي الجزائر أكثر من القرى " . ينظر :
أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ، ص.56 .

[1] – حمدان بن عثمان خوجا : المراة ، تقديم وتعريب وتحقيق ، محمد العربي الزبيري ، منشورات anep ،الجزائر ، 2005 ، ص.47.

[2] – أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص.56 .

وهكذا، فإن تجريد الأهالي المسلمين الجزائريين من أرضهم، وحرمانهم من المواطنة الفرنسية [1]، وما ترتب عنها من حرمان من الحقوق التي تكفلها هذه الصفة، قد أدى إلى خلق وضع اجتماعي مأساوي، حيث انتشرت البطالة في أوساط الأهالي المسلمين الجزائريين بصورة مذهلة ، فلم يكن أمام الجزائري المسلم إلا خيار العمل الفلاحي في الأراضي الفقيرة التي بقيت بحوزته التي لا يكاد مردودها يسد الرمق، واضطر آخرون إلى العمل كخماسة، كانوا يشبهون في أوضاعهم " أقنان الأرض" في أوروبا خلال العصور الوسطى. ولهذا كان أحمد توفيق المدني محقا عندما ذكر أن الإنسان الجزائري المسلم كان في زمن الاحتلال يعيش **" علة على مجتمع معدم "** [2]. وهذا الوضع الكارثي يرجع بالأساس إلى سياسة فرنسا في ميدان التشغيل التي كانت تقوم أساساً على الاستثمار في جهد الجزائريين ؛ خصوصاً المشتغلين في الميدان الفلاحي الذّين كانوا يشتغلون لساعات طويلة تتراوح بين 12 و 14 ساعة يومياً مقابل تقاضي أجور زهيدة لا تكفيهم لإعالة عائلاتهم الكبيرة ، وذلك **" ليزداد المستعمرون ثروة و غنى و تمكناً في الأرض ، وليزداد الجزائريون فقراً وفاقة فلا تقوم لهم في قطر الجزائر قائمة فأساس السياسة الفرنسية في قطر الجزائر هو التفقير "** [3].

[1] – نص قانون سناتوس كونسيلت الصادر بتاريخ 14 جويلية 1865 على أن الجزائريين عبارة عن رعايا فرنسيين و لا يمكنهم على الجنسية الفرنسية الا اذا توفرت فيهم مجموعة من الشروط ، وبذلك أصبح الجزائريون غرباء قانونيا على أرضهم فهم حسب هذا القانون ليسوا جزائريين وليسوا فرنسيين وإنما هم رعايا وبذلك فقدوا كل الحقوق التي تضمنها المواطنة .

[2] – أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص– ص.135–136 .

[3] – أبو القاسم سعد اللّه : الحركة الوطنية الجزائرية ،ج1 ، المرجع السابق ، ص.134 .

ولم يقتصر الفقر الذي أصاب الجزائريين على الطبقة البسيطة بل تعداه إلى الطبقات التي كانت تعتبر **"بورجوازية المجتمع الجزائري "** ، ففي الوقت الذي كان فيه الأوربيون واليهود يزدادون غناً على غناً، كانت هذه الطبقة (البورجوازية) تتدنى نحو عتبات الفقر. فقد أدت الإجراءات الإدارية التي قامت بها فرنسا - و التي كانت تجيء عادة بعد الحروب - إلى تقليص نفوذ الأجواد و العائلات الكبيرة الحاكمة باسم الفرنسيين ، ونعني بهم الموظفين المعينين برتبة خليفة و باشاغا ... الخ. و قد تحدث الكثير من الكتاب عن حالة الفقر التي أصابت هذه العائلات خصوصا التي لم تهاجر وفضلت البقاء في الجزائر ، يذكر مثلا يوجين دوماس سنة 1855 أنّ أهل الحضر الذّين كانوا جمعوا أموالاً طائلة خلال عهد البايات أصبحوا يعيشون في فقر مدقع ، وغدوا غير قادرين على منافسة الأوربيين . ولجأت هذه العائلات نتيجة الفقر إلى طلب المعونة من السلطات الفرنسية حيث أورد أبو القاسم سعد الله أمثلة عن ذلك ، فهذا مثلاً حمودة بن الفكون (ابن شيخ الإسلام) بقسنطينة الذي كانت لعائلته أموالًا طائلة يكتب إلى الحاكم العام سنة 1852 يلفته إلى الوضعية الصعبة التي آلت إليها عائلته . و هذا حسان بن الباي السابق لقسنطينة ، علي انكليز ، يطلب من الجنرال راندون(Randon) سنة 1852-1853 أن يخصص له مبلغاً من المال ليكون معاشاً له . والأمثلة كثيرة عن الطلبات التي قدمها كبار وأغنياء الأمس راجين المساعدة من الفرنسيين [1] . إنّ هذه الأمثلة تعطينا صورة واضحة عن حالة الفقر التي آل إليها المجتمع الجزائري المسلم عموما والمجتمع المتيجي خصوصا باعتبار سكانه كانوا ملاكا لأراضيه قبل أن يستولي عليها الفرنسيين بمختلف الطرق والوسائل .

[1] – أبو القاسم سعد اللّه: الحركة الوطنية، ج1، المرجع السابق، ص.135 .

2- الكوارث الطبيعة :

أ- الجراد : الجراد هو آفة طبيعية معروفة في كل أنحاء العالم ، والجراد أنواع أهمها وأخطرها الجراد الطائر المعروف باسم " الجراد المهاجر أو المتنقل " وهو يتميز بتنظيمه الجيد وبقدرته على التنقل لمسافات طويلة في شكل أفواج بحثا عن الغذاء ، كما يتميز بتوفره على أجنحة قوية تمكنه من الطيران لمسافات بعيدة . يعيش هذا النوع من الجراد في وسط و جنوب مصر ، وفي تونس ، والجزائر والمغرب ، و يتنقل من منطقة إلى أخرى بسبب مجموعة من العوامل متحديا بذلك كل العوامل و الظروف الطبيعية [1]. ونظراً لأعداده الكبيرة فإنه يلتهم كل ما يجده في طريقه من خضروات و أعشاب ويترك الأرض جرداء قاحلة خالية من كل مظاهر الحياة ، وهو بذلك يشبه أكل النّار للهشيم التي لا تترك شيئا وراءها . ويتنقل الجراد جواً في شكل أفواج كبيرة على شكل شريط ملتصق وواسع ، وعادة ما تسير هذه الأفواج وفق حركة الرياح التي تقودها حسب جهة هبوبها ، وتقود الرياح أفواج الجراد نحو الشمال في أغلب الأحيان [2] خاصة في شمال إفريقيا و الجزائر بالتحديد التي تهب بها رياح ساخنة قادمة من الجنوب (الصحراء) متجهة نحو الشمال، و تعرف هذه الرياح بالشهيلي أو السيروكو . وأثناء هجرته يطير الجراد في شكل سراب على

[1] – l'abbé burzet : histoire des désastres de l'Algérie 1866-1867-1868 sauterelles , tremblement de terre , choléra , famine , imprimerie centrale algérienne , usine a vapeur eug.garaudel , alger , 1869 , pp.7-8 .

[2] – l'abbé burzet : op.cit, 1869 , p. 8 .

ارتفاع كبير متخذا شكل سحب أو في شكل ثلج أثناء تساقطه ، وعند نزوله على الأرض يسقط في شكل كتل تشبه تناثر القطن الأبيض [1] .

زحف الجراد على الجزائر بداية من شهر أفريل 1866 ، وكان السهل المتيجي من بين المناطق الأولى التي إلتهمها الجراد ووصل إلى غاية المدية ، ويعرف عن سهل المتيجة غناه بمختلف المحاصيل الزراعية خصوصا القمح و الشعير ، وكانت هذه المحاصيل هي المورد الأساسي الذي يعيش عليه السكان ، وقد التهم الجراد هذه المحاصيل وبقي السكان بدون مورد رزق يذكر [2].

ب- الزلازل : لقد كان زلزال 2 جانفي 1867 من أخطر الزلازل التي شهدتها متيجة في القرن التاسع عشر ، ويروي لنا الأب بيرزي [3] (burzet l'abbé) في كتابه تاريخ الكوارث في الجزائر (histoire des désastres de l'Algérie 1866-1867-1868) حيثيات هذا الزلزال الذي ضرب متيجة و الذي خلّف عدد كبير من الضحايا وسط سكان المتيجة ، سواء القرويين أو سكان المدن ، وعن عدد الضحايا فإن الأب بارزي لم يذكر ذلك بالتفصيل مكتفيا بوصف الزلزال بالكارثة ، و أنه أدى إلى حدوث كارثة ديمغرافية .

---

[1] – idem

[2] – خديجة بقطاش : الحركة التبشيرية في الجزائر 1830–1871 ، ص.102.

[3] – الأب بيرزي : كان قسيسا على مدينة الشبلي بمتيجة ، وهو شاهد على الكوارث التي شهدتها المنطقة خلال المرحلة المدروسة وقد ألف كتاباً عالج فيه الكوارث التي ضربت الجزائر خلال سنوات 1866–1867–1868 وقد ركز كثيرا على منطقة متيجة باعتبارها شهدت قساوة الكوارث .

3- الفقر و الأوبئة و المجاعات الدورية كانت سنة 1867 تعيسة بالنسبة لسكان متيجة حيث أنّ جراح السكان لم تندمل بعد من جراء الزلازل التي أصابت المنطقة في مطلع السنة حتى إنتشرت الكوليرا كما كان للآثار الاقتصادية الناجمة عن السياسة الإدارية الفرنسية تداعيات كبيرة على المجتمع الجزائري المسلم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر شملت مختلف ميادين حياتهم، و بلغت أوجها خلال النصف الثاني من عقد الستينات.

وهكذا، فإن تجريد الأهالي المسلمين الجزائريين من أرضهم، وحرمانهم من المواطنة الفرنسية، وما ترتب عنها من حرمان من الحقوق التي تكفلها هذه الصفة، قد أدى وضع اجتماعي مأساوي، حيث انتشرت البطالة في أوساط الأهالي المسلمين الجزائريين بصورة مذهلة ، فلم يكن أمام الجزائري المسلم إلا خيار العمل الفلاحي في الأراضي الفقيرة التي بقيت بحوزته، التي لا يكاد مردودها يسد الرمق، واضطر آخرون إلى العمل كخماسة، كانوا يشبهون في أوضاعهم " أقنان الأرض" في أوروبا خلال العصور الوسطى. ولهذا كان أحمد توفيق المدني محقا عندما ذكر أن الإنسان الجزائري المسلم كان في زمن الاحتلال يعيش **" علة على مجتمع معدم "** [1] .

وذلك يرجع بالأساس إلى سياسة فرنسا في ميدان التشغيل التي كانت تقوم أساساً على الاستثمار في جهد الجزائريين ؛ خصوصاً المشتغلين في الميدان الفلاحي الذّين كانوا يشتغلون لساعات طويلة تتراوح بين 12 و 14 ساعة يومياً مقابل تقاضي أجور زهيدة لا تكفيهم لإعالة عائلاتهم الكبيرة ، وذلك **" ليزداد المستعمرون ثروة و غنى و تمكناً في الأرض ، وليزداد**

[1] –أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص– ص.135–136 .

الجزائريون فقراً وفاقة فلا تقوم لهم في قطر الجزائر قائمة فأساس السياسة الفرنسية في قطر الجزائر هو التفقير "[1] .

ولم يقتصر الفقر الذي أصاب الجزائريين على الطبقة البسيطة بل تعداه إلى الطبقات التي كانت تعتبر **" بورجوازية المجتمع الجزائري "** ، ففي الوقت الذي كان فيه الأوربيون واليهود يزدادون غناً على غناء، كانت هذه الطبقة (البورجوازية) تتدنى نحو عتبات الفقر ، فقد أدت الإجراءات الإدارية التي قامت بها فرنسا - و التي كانت تجيء عادة بعد الحروب - إلى تقليص نفوذ الأجواد و العائلات الكبيرة الحاكمة باسم الفرنسيين ، ونعني بهم الموظفين المعينين برتبة خليفة و باشاغا ... الخ. و قد تحدث الكثير من الكتاب عن حالة الفقر التي أصابت هذه العائلات خصوصا التي لم تهاجر، وفضلت البقاء في الجزائر ، يذكر مثلا يوجين دوماس سنة 1855 أنّ أهل الحضر الذّين كانوا جمعوا أموالاً طائلة خلال عهد البايات أصبحوا يعيشون في فقر مدقع وغدوا غير قادرين على منافسة الأوربيين . ولجأت هذه العائلات نتيجة الفقر إلى طلب المعونة من السلطات الفرنسية حيث أورد أبو القاسم سعد الله أمثلة عن ذلك ، فهذا مثلاً حمودة بن الفكون (ابن شيخ الإسلام) بقسنطينة الذي كانت لعائلته أموالًا طائلة يكتب إلى الحاكم العام سنة 1852 يلفته إلى الوضعية الصعبة التي آلت إليها عائلته ، و هذا حسان بن الباي السابق لقسنطينة ، علي انكليز ، يطلب من الجنرال راندون(Randon) سنة 1852-1853 أن يخصص له مبلغاً من المال ليكون معاشاً له . والأمثلة كثيرة عن الطلبات التي قدمها كبار وأغنياء الأمس راجين المساعدة من الفرنسيين [2] . إنّ هذه الأمثلة تعطينا صورة واضحة

[1] – أبو القاسم سعد اللّه : الحركة الوطنية الجزائرية ،ج1، المرجع السابق ، ص.134

[2] – المرجع نفسه : ص.135 .

عن حالة الفقر التي آل إليها المجتمع الجزائري المسلم عموما بما فيه المجتمع المتيجي .

لقد تأثر المجتمع الجزائري المسلم في الجزائر عامة و في متيجة خاصة بمختلف الأوضاع السائدة و خصوصاً انتشار الفقر ، و هو ما أدى إلى انتشار الأمراض بمختلف أنواعها ، وصار الموت يحصد أعداداً كبيرة في كل سنة . ونتج عن ذلك انخفاض معدل الحياة بالنسبة للفرد الجزائري إلى أقل من 50 سنة ، في حين أنّ معدل عمر الأوربي في الجزائر هو اثنان وسبعون عام ونصف عام (72.5) . كما أشارت الإحصائيات الفرنسية إلى أنّ معدل الكالوريات [1] التي يتناولها الجزائري هي 1500 كالورية (2000 في المدن و1000 في الريف) في اليوم، و هي نصف معدل الكالوريات التي يتناولها الأوربي و التي تقدر بـ 3000 كالورية [2] ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل عن مدى انخفاض مستوى المعيشة للجزائريين .

و قد ساعدت هذه الأوضاع على انتشار الأمراض في أوساط الجزائريين ، مثل مرض السّل (مرض الفقر) خصوصاً في القرى و مساكن العمال في المدن ، و رغم أنّ عدد سكان فرنسا كان يفوق كثيراً عدد سكان الجزائر إلّا أن عدد مرضى السّل متساوي في البلدين ، ورغم ذلك فإنّ عدد المستوصفات الخاصة بهذا المرض في فرنسا يقدر بـ 900 مستوصف، وفي الجزائر لا يوجد سوى 28 مستوصف فقط، والتي بنيت في الواقع خصيصا للمستوطنين . و من الأمراض الأخرى التي وجدت ضالتها وسط الجزائريين هي أمراض العيون الفتاكة ، فهي تؤدي إلى فقدان عدد كبير من الجزائريين لأبصارهم ، خصوصاً مع انعدام مصحات خاصة بهذه

[1] – **الكالوري** أو **الحريرة أو السعرة الحرارية** : وهي وحدة لقياس الطاقة الحرارية التي يحتاجها ويكونها الجسم لكي يقوم بعمله بشكل عادي، وذلك عن طريق إحراق المواد الغذائية. فالإنسان يحتاج للطاقة لعمل وظائفه الأساسية للحياة.

[2] – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص.134 .

الأمراض . ومن مؤشرات تدني الوضع الصحي للجزائريين المسلمين هو قلة المستشفيات و الأطباء ، هذا بالنسبة للمدن ، أمّا في القرى و المداشر التي لا يتواجد بها المستوطنون الأوروبيون فلم يكن هنالك وجود للمستشفيات و الأطباء والصيادلة ... [1].

ولمواجهة سوء الأحوال الاجتماعية ؛ من بطالة وفقر وانخفاض الأجور و انتشار الأمراض والأوبئة، لجأ الأهالي المسلمون الجزائريون إلى الهجرة إلى فرنسا و غيرها من البلدان بحثا عن لقمة العيش و فرارا من الموت الذي أصبح يتربص بهم . كما كان التجنيد الإجباري عاملاً مهما في ذلك خصوصا و أن فرنسا كانت لا تتواني في تجنيد آلاف الجزائريين في صفوف جيوشها أثناء حروبها المختلفة مثل : حرب 1870 أمام ألمانيا [2] .

و نتيجة لكل ما سبق ذكره، فقد عرفت الجزائر في سنة 1850 تراجعاً ديمغرافياً كبيراً قدر بمليون نسمة، وكان ذلك بسبب مجموعة من العوامل – إضافة إلى العوامل التي سبق ذكرها - تمثلت في استيلاء الفرنسيين على ممتلكات الجزائريين و المضاربات التي كان يقوم بها الأوربيون ، إضافة إلى زحف الجراد و إتلافه للمحاصيل الزراعية في سنوات 1846 و 1847 ، و انتشار آفة الكوليرا في سنوات 1849-1850 [3].

و لم يكن عقد الستينات أحسن حال حيث كانت بداية هذه النكبات منذ سنة 1864 حين بدأت أفواج الجراد تزحف نحو شمال الجزائر، و ازدادت حدتها سنة 1866 بعد أن عبرت سلسلة الأطلس الصحراوي ملتهمة كل ما وجدته في طريقها من مزروعات . وكان تضرر الجزائريين كبيراً حتى أصبح يعرف هذا العام باسم **" عام الجراد "** . ورغم هول

[1] –أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص.135 .

[2] – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص– ص.135–136 .

[3] – محفوظ قداش : المرجع السابق ، ص.175 .

الكارثة فإن المستوطنين لم يتضرروا منه (الجراد) نظرا للإمكانيات التي كانوا يتوفرون عليها [1] .

كما عرفت الجزائر أواخر عهد الإمبراطورية أزمات اجتماعية حادة ، كانت بدايتها منذ سنة 1866 ، هذا العام الذي أصبح يعرف في الذاكرة الجماعية للجزائريين باسم **"عام الشّر"** أو عام **" المجاعة "** و تعود أسباب هذه الأزمة إلى مجموعة من العوامل منها بيع مخازن القمح في الشمال خوفاً من الاضطرابات بعد 1866 ، و حصيلة الحصاد السيئ لسنة 1865 ، و زحف الجراد و الجفاف سنة 1866 [2] ، هذا ولم يتوقف خطر الجراد عند سنة 1866 بل بقي خطره يتجدد كل سنة تقريباً ، ففي سنة 1869 و 1870 عاود الجراد زحفه خصوصاً في منطقة حكم المقراني بمدجانة حيث أتلف محاصيل الفلاحين و هو ما زاد من بؤسهم و انتشرت في أوساطهم المجاعة و الأوبئة [3] . وبينما كان الجزائريون يعانون من الجراد والجفاف حتى ضرب زلزال شمل كل من موزايا و العفرون و الشفة سنة 1867 . وانتشر مرض الكوليرا الذي كان قد ظهر سنة 1866 و اشتدت وطأته سنة 1867 ، وقد تضرّر منه الجزائريون كثيراً نظراً لتدني المستوى المعيشي ، و غياب وسائل الوقاية الصحية . كما انتشر مرض التيفوس [4] .

وقد كانت وطأت هذه الكارثة شديدة على الأهالي المسلمين الجزائريين الذين وصل بهم الأمر إلى أكل الفطريات و جذور النباتات و الأوراق ... الخ . وقد أدت هذه الكارثة إلى هلاك عدد كبير من الجزائريين ، حتى أصبحت جثثهم مرمية على حافة الطرقات تأكل منها الكلاب و الضباع . وما زاد

---

[1] – l'abbé burzet :op.cit , pp.11-12 .

[2] – محفوظ قداش : المرجع السابق ، ص– ص.175-176 .

[3] – يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص.484 .

[4] – المرجع نفسه : ص–ص.484-485 .

الطين بله هو انتشار الأوبئة المختلفة كالكوليرا و التيفوس و الإسهال والجدري. كل هذا أدى إلى تراجع كبير في عدد السكان الجزائريين خصوصا بين 1866-1872 . وقد فكرت السلطات الفرنسية في تعويض هذا التراجع الديموغرافي بـ 2.5 مليون أوربي . و رغم حجم الكارثة التي مست المسلمين الجزائريين فان السلطات الفرنسية لم تتحرك لمعالجة الموقف أو على الأقل التخفيف منه. وهو ما جعل المدن تعج بالنازحين من الفلاحين الذين تخلو عن أراضيهم من اجل ممارسة بعض المهن التقليدية التي تمكنهم من سد رمق العيش [1] .

وأشار الدكتور فيتال في عدد من رسائله إلى ما كان يعانيه الجزائريون من ذلك فقال في رسالة 9 جويلية 1867 **" إنّه لم تبق من الأشياء المخزنة ماثلة أمام الأعين ، كالعطش و الجوع ، والتعاسة ، و الأمراض ، و الأهالي يموتون بالجملة في السمندو ، و العلمة ، وعدة جهات أخرى من جراء الكوليرا و التيفوس المتفشيين بسبب المجاعة "** [2] ، وقد بلغ عدد الضحايا سنة 1867 في المناطق المدنية للعمالات الثلاث للجزائر 5521 شخص كما هي مبينة في الجدول الموالي [3] :

العمالة	الضحايا المقيمين	الضحايا في المستشفيات	المجموع
وهران	435	83	518
قسنطينة	368	135	503

[1] – محفوظ قداش : المرجع السابق ، ص– ص.175–176 .

[2]– André Nousci : enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête à 1919 , paris , 1961 , pp.213–1214.

[3] – Djilali sari : le désastre démographique de 1867–1868 en Algérie, ENAG éditions , Alger , 2010 , p.140

الجزائر	4165	335	4500
المجموع	4968	553	5521

و إضافة إلى الأمراض المتفشية وسط الجزائريين (الكوليرا والتيفوس)، فقط عرفت الجزائر الجفاف الذي أدى إلى قلة المحاصيل الزراعية . وكانت سنة 1865 بداية لهذه السنوات العجاف و استمرت لمدة 3 سنوات بلغت ذروتها سنة 1867 ، حيث قلت المياه وجفت الينابيع في فصل الصيف فيبست الحشائشو هلكت المواشي خاصة في الهضاب العليا و انتشرت المجاعة جراء ذلك حتى أصبح يعرف هذا العام بعام الشّر[1] -كما سبق و أن قلت - و ارتفعت أسعار المواد الغذائية خصوصا القمح الذي وصل سعره إلى 100 فرنك للصاع الواحد بعد كان سعره أيام الحرث يقدر ب 26 فرنك [2].

وقد استنفذ السكان الجزائريون ما كان عندهم من مواد غذائية ، واضطروا للهجرة نحو إقليم التل بحثا عن الطعام ، و أكل الكثير منهم جذور الحشائش و أوراق الشجر ، و الحيات و الكلاب [3] بل أن البعض منهم نبشوا القبور و أكلوا جثث الموتى و ادعى أحد الكتاب بأنهم أكلوا حتى الأحياء من البشر [4] .

[1] – يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص–ص.485 – 486.

[2] – André Nousci : op.cit , pp.210-211.

[3]– la famine en algérie et les discours officiels erreurs et contradictions ,deuxième édition , louis marle libraire , Constantine , 1868 , pp.210-211.

[4]– Charles André julien : op.cit , 439-440 .

وأورد الأب بورزي و شارل كوفي أن عدد ضحايا المجاعة فاق ثلاثة مئة (300) ألف شخص في حين أن البعض يذكر ضعف هذا العدد [1] ، فهذه مثلاً جريدة لومنيتار دو لاجيري " le moniteur de l''Algerie " تذكر بأنّ عدد الضحايا في العمالات الثلاث للجزائر بلغ 128112 ضحية ، لكن هذا الرقم لم يشمل سوى شهر جانفي ، فيفري ، مارس ، أفريل من سنة 1868 في حين أنها التزمت الصمت بخصوص شهر أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر من سنة 1867. وهو ما يدل على أنّ عدد الضحايا يفوق كثيراً العدد الذي ذكرته هذه الجريدة . فقد بلغ عدد ضحايا المجاعة مئة وستون (160) ألف ضحية في عمالة وهران فقط[2] . ونفس العدد (160 ألف) عرفته عمالة قسنطينة ، و نقل بورزي عن أسقف مدينة الجزائر أنّ عدد الضحايا بلغ 100 ألف شخص في عمالة الجزائر . و حسب رأي جون فافر فإنّ عدد سكان الجزائر تناقص بمقدار الربع خلال عشر(10) سنوات وذلك بسبب البطئ المسجل في عدد المواليد من جهة و نقص المحاصيل الزراعية سنوات الجفاف من جهة أخرى وقد نقص عددهم بأربعة مئة (400) ألف نسمة سنة 1871 [3] .و يذكر أبو القاسم سعد الله أن الجزائر فقدت حوالي مليون من سكانها المسلمين في حين أنّ الأوروبيين لم يمسسهم شيء فكأنهم كانوا يعيشون في بلاد أخرى [4] .

إنّه لمن الصعب جداً أن نلم بكل جوانب الكوارث التي أصابت الجزائريين في أواخر عقد الستينات وذلك نظراً لهول هذه الكوارث المتعددة الأوجه التي عرفتها الجزائر، لكن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان

---

[1] – la famine en Algérie ,op.cit , pp.22-24.

[2] – l'abbé burzet : op.cit , p.86 .

[3] – يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص.487 .

[4] – أبو القاسم سعد الله : خلاصة تاريخ الجزائر المقاومة و التحرير ، المرجع السابق ، ص.81 .

هو : كيف تعاملت السلطات الفرنسية مع الموقف ؟ و هل كانت تدخلات مختلف مصالحها الإدارية في مستوى حجم هذه الكوارث ؟

يذكر أحد الكتاب الفرنسيين أنّ الحكومة قد بذلت قصارى جهدها من أجل التخفيف من حدة المجاعة على الجزائريين ، وخصصت لهذا الغرض مبالغ كبيرة [1] ، حيث خصصت مبلغا قدره400 ألف فرنك في جانفي 1868 ، ثم مبلغا قدره مليونين من الفرنكات في السنة الموالية [2] . ويذكر بعض الكتاب أنّ السلطة العسكرية في مناطق الحكم العسكري ممثلة في المكاتب العربية لم تتدخل لمساعدة الأهالي الواقعين تحت سلطتها، بينما عرف الأهالي القاطنين في المناطق الخاضعة للسلطة المدنية مساعدة من طرف الأوربيين [3] .

فبالنسبة للمناطق الخاضعة للسلطة المدنية فإنّ اطلاعنا على محضر مداولات المجلس العام لعمالة قسنطينة يكشف لنا أنّ عمالة قسنطينة خصصت 4500 فرنك كمبلغ إضافي لميزانية ملاجئ الأيتام (orphelinats) التي ارتفع عدد اللاجئين بها بسبب الوباء الذي عرفته الجزائر سنة 1867 و المجاعة التي شهدتها سنة 1868 . كما تمّ تخصيص مبالغ مالية تقدر بـ 7900 فرنك لتوزيع الأدوية وتقديم مساعدات للأهالي المسلمين الذين ليس لهم مأوى [4] . لكن هذه الميزانية كانت موجودة من

---

[1]- l'abbé burzet : op.cit , p.83 .

[2] – خديجة بقطاش : الحركة التبشيرية في الجزائر 1830-1870 ، منشورات دحلب ، الجزائر ، 2007 ، ص.108.

[3]- Ernest mercier : la question des indigènes en Algérie ,op.cit , p.48.

[4]- province de Constantine, conseil général : rapport sur le budget et procès-verbaux du conseil, imprimerie et lithographie de veuve guende , Constantine , 1868 , p.348.

قبل ولم تعرف سوى زيادات طفيفة ، لذلك يمكن القول أنّ السلطة الفرنسية في عمالة قسنطينة قد تحركت للتخفيف من وطأة الكارثة على الجزائريين ، لكن المبالغ التي خصصتها و التدابير التي قامت بها لم تكن بحجم تلك الكارثة . وما قلناه عن عمالة قسنطينة يمكن أن نعممه على باقي العمالات الجزائرية . وربما يرجع ذلك – تقاعس الفرنسيين على مساعدة الجزائريين – إلى ضغط بعض الأطراف من الفرنسيين وغيرهم للحيلولة دون ذلك، وقد اعتبر بعض الكتاب الفرنسيين أنّ أسباب المجاعة ترجع إلى كسل الجزائريين الفطري عن العمل و لذلك لا ينبغي مساعدتهم[1] .

و من أجل ذلك فقد قامت السلطات الفرنسية بتكليف لجنة للتقصي عن أسباب مجاعة 1869 ، وقد استفسرت هذه اللّجنة الأعضاء الجزائريون في المجالس العامة للعمالات الثلاثة وهم : حسن بن بريهمات ، المكي بن باديس ، و أحمد ولد القاضي . وقد بيّن هؤلاء النواب الأسباب الحقيقية التي كانت وراء هذه المجاعة حيث ورد في إجاباتهم قولهم [2] "... **نعم كان في السالف كثير من الفلاحين يكون عندهم الفاضل في الزرع عن قدر كفايتهم ، فيحفظونه في المطامير ، و يخرجونه وقت المسغبة ليدفعوا المضرة و لما حل بهم غلو السعر في كراء الأرض الدومينية ، وغيرها من الزيادة في المغرم ، وصارت الحاجة تدعوهم إلى قرض الدراهم بالفائدة المضرة ، كستين في المائة و نحو ذلك ممن انتصب لذلك ، و لم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم الحاجة إلى بيع الزرع و الصوف قبل أوانها بأقل من نصف القيمة ، فصار الزرع الذي يحصدونه في المصيف يخرج كله في أيديهم في الشأن المذكور ، ولم يبق بأيديهم فاضل يدخرونه** ".

[1] – يحي بوعزيز : المرجع السابق ، ص.490 .

[2] – المرجع نفسه : ص –ص.488-489 .

كما نفى الأعضاء الجزائريون في المجلس العام في إجابتهم أن تكون مضاعفات المجاعة بسبب جهل الجزائريين لأمور الفلاحة ، و لكن أرجعوها للنكبات الطبيعية المتوالية التي شهدتها الجزائر ، كما استنكروا ضمنيا الرّبا الذي كان يمارسه اليهود ، و استنكروا محاولة تقسيم أراضي الأعراش لأنّ تقسيمها بين المالكين يسهل عملية بيعها انتقالها إلى الأوربيين بطريقة أو بأخرى ، و نددوا بإجحاف النظام البلدي الذي لم يكن يهتم إلا بمصالح الأوربيين [1]. وخلاصة قولهم أنّ المجاعة ساهمت في حدوثها مجموعة من العوامل، وليس سببها الفلاحين الجزائريين كما ادعى بعض المسئولين و الكتاب الفرنسيين .

ولم تكن نهاية القرن التاسع عشر أفضل حالاً عن السنوات السابقة، حيث تدهورت الحالة الاجتماعية للجزائريين، فقد انخفض إنتاج الحبوب الذي لم يكن يتماشى مع النمو الديمغرافي فبعد أن كان مردود الهكتار يقدر بـ 7.1 قنطار انخفض إلى 4.2 ق/هـ عام 1901، كما تراجع عدد المواشي كما هو موضح في الجدول التالي [2]:

السنوات	الأغنام	الأبقار	الماعز
1889-1885	9318000	تقريبا مليون	4481000
1899-1895	7150000	حوالي 846000	3475000

و من مظاهر معاناة الجزائريين من ظاهرة الفقر هو تزايد البيوت المبنية بالطوب و المغطاة بالديس و القصب .. الخ . وهو ما أدى إلى تفكك المجتمع الريفي[3].

[1] – نفس المرجع و الصفحة .

[2] – محفوظ قداش : المرجع السابق ، ص– ص.228–229 .

[3] – نفس المرجع و الصفحة .

خاتمة : من خلال ما سبق عرضه نستنتج أنّ متيجة و ما تنضوي عليه من أراضي خصبة ومدن هامة وتعداد سكاني معتبر قد كانت عرضة لجملة من المآسي الاجتماعية جراء الكوارث الطبيعية التي شهدتها المنطقة طوال القرن التاسع عشر من جراد و زلازل و أمراض و أوبئة و مجاعات دورية ، وكل هذه الكوارث و الآفات الطبيعية ساهمت في حدوث كوارث ديمغرافية أدت إلى تراجع ديمغرافي رهيب في العديد من السنوات خصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان للسياسة الاستعمارية دور في ذلك من خلال سياسة نزع الأراضي من السكان ونهبهم ممتلكاتهم وتمليكها للمعمرين الذين استنزفوا ثروات سكان المنطقة ، هذا ، وقد تقاعست السلطات الفرنسية في التدخل لمعالجة الكوارث التي شهدتها متيجة والتي كانت تقتصر في غالب الأحيان على مساعدة المعمرين دون غيرهم .